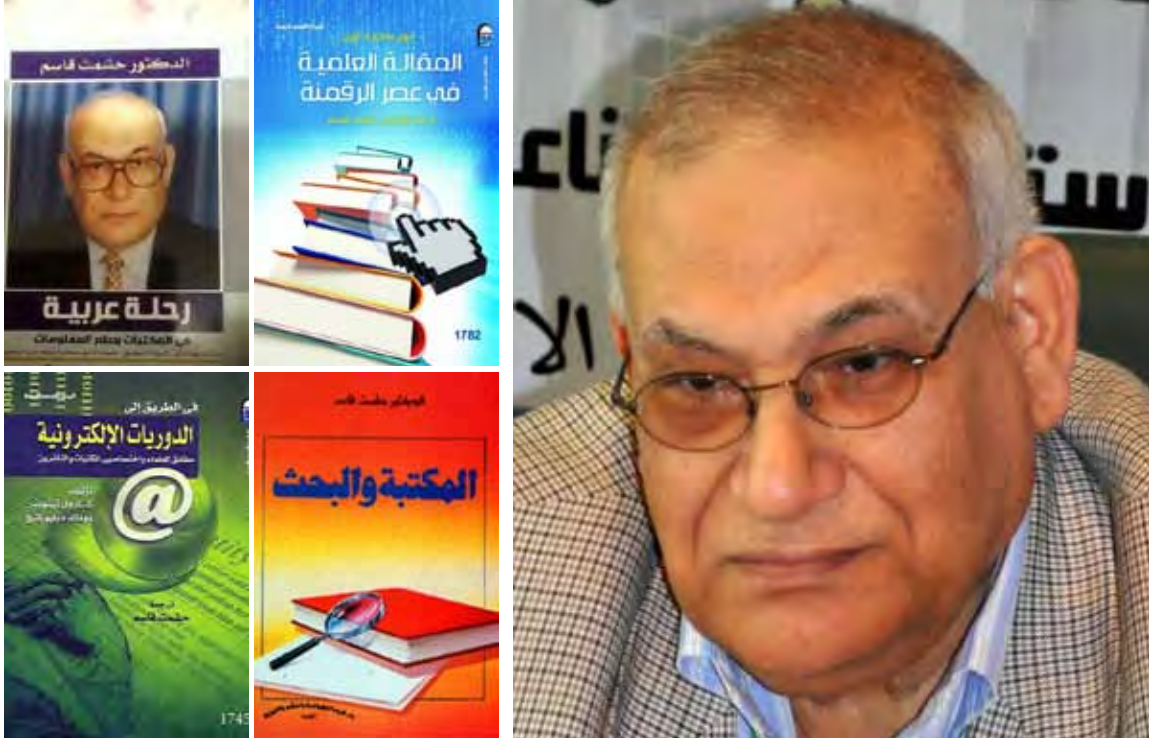


حشمت قاسم.. رائد علم المعلومات في العالم العربي



بقلم: د. عبدالرحمن فراج*

وبالرغم من عدم استخدام "وسم" مناسب للحدث، إلا أن الخبر انتشر بصورة واسعة، وقام عديد من الأشخاص والمؤسسات المهنية والأكاديمية، الوطنية والإقليمية، بتدوين الخبر وتدويره. وجذبت هذه التدوينات مئات من التعليقات وواقعات الإشادة باستخدام الرموز التعبيرية المختلفة.

ترجل الرجل، إذن، عن صهوة جواده؛ ولم يبق سوى الترحم عليه، وتمثل أفكاره وتوجيهاته، والتأمل في سيرته العلمية وإنجازاته.

ما الذي صنع حشمت قاسم؟

بعد توفيق الله تعالى؛ صنع حشمت قاسم استعداداه الفطري، وموهبته القوية، وتكوينه العلمي الأولي على ما حكاه في سيرته المختصرة الوحيدة المنشورة⁽¹⁾، ثم تكوينه المنهجي عندما صادف إبان رحلته إلى إنجلترا وتلمذ على أيدي علماء عصره في علم المعلومات.

فُجع تخصص المكتبات والمعلومات في العالم العربي، صبيحة الخميس الثاني عشر من شوال عام ثلاث وثمانين وأربعمائة وألف من هجرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الموافق السادس من يوليو (تموز) عام سبعة عشر وألفين من ميلاد المسيح عليه السلام، بخبر وفاة أستاذنا الدكتور حشمت قاسم.

والحقيقة أن الصدى الواسع لوفاة الرجل على وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة - أحد أبرز المنصات المعاصرة الدالة على آراء الناس ومعتقداتهم، وأسرعها نشرًا للأخبار والأحداث - كشفت عما يحظى به من حب وتقدير لدى كثير من الناس؛ الأكاديميين منهم والمهنيين، على اختلاف أعمارهم ودرجاتهم. كما كشفت عما له من أثر وتأثير في نفوس هؤلاء جميعًا. وبعض من هؤلاء - ليس بالقليل - لم يره عيانًا، ولا يعرفه شخصيًا، وإنما عرفه من خلال أفكاره وإنتاجه الفكري.

ويأتي بعد ذلك أفقه الواسع، ودأبه المتواصل، وحبه للمهنة، وثقافته الموسوعية التي يعرفها جيدًا كل من احتك به، وسيطرته التامة على لغتيه العربية والإنجليزية (لغتا القراءة والكتابة)، وذائقته اللغوية التي أهلتها لتعريب وسك المصطلحات التخصصية بتوفيق بالغ، ثم تمكنه من أدواته المنهجية التي حرص دائمًا على تطويرها، ونقلها للبيئة العربية في مجال المكتبات والمعلومات. أفادني أستاذه الدكتور أحمد أنور عمر (رحمه الله الجميع)، وكنت جالسًا بقسم المكتبات بجامعة القاهرة إبان التحاقني به طالبًا في مرحلة الماجستير، بأن أكثر ما يمكنني أن أتعلمه من الدكتور حشمت قاسم هو "المنهج".

أما عن دأبه في عملية البحث والدرس والكتابة، فقد لاحظ صديقه وابن جيله الدكتور عبدالوهاب أبو النور (رحم الله الجميع)، وكما حدثني يومًا في أحد اللقاءات به بالرياض، بأن الدكتور حشمت في البحث العلمي كان فلاحًا أصيلًا؛ فهو يحرث في "البحث" كما يحرث الفلاح في "الحقل".

هل لحشمت قاسم مدرسة؟

يكشف عن ذلك القطاعات العلمية التي كان الرجل رائدًا في استكشافها والكتابة فيها، وأسلوبه في التوجيه، وشخصيته العلمية، والمناهج البحثية التي اتبعها ودعا إليها، وإنتاجه الفكري، وتلاميذه الذي يعد أبرز مؤشر عليهم هو الأطروحات التي أجزت لهم على يديه، وبالطبع أي دارسين آخرين تأثروا به من خلال المعايضة المباشرة أو من خلال إنتاجه الفكري.

ما هو التأثير الحقيقي لأعمال حشمت قاسم؟

الحقيقة أننا يمكننا التوصل إلى هذا التأثير ببساطة من خلال تحليل الاستشهاد المرجعي بأعماله. وبالرغم من أنه لا يوجد -حتى الآن- محاولة عربية شاملة أو شبه شاملة من هذا القبيل، إلا أن الدراسات المنشورة يمكن أن تقدم لنا



يعد الدكتور قاسم صاحب مدرسة في مجاله وهو ما تكشف عنه القطاعات العلمية التي كان الرجل رائدًا في استكشافها والكتابة فيها، وأسلوبه في التوجيه، وشخصيته العلمية، والمناهج البحثية التي اتبعها ودعا إليها



بعض المؤشرات^(٦). وبالرغم من طول العهد بكثير من هذه المؤشرات، إلا أنه من العجيب أن "استقراء" الواقع ينبئنا بأن كثيرًا من أعمال الرجل، حتى وإن تقادم العهد بها، لا يزال قادرًا على الصمود.

الحضور الإلكتروني لحشمت قاسم

لم يحاول حشمت قسم، أو لم يهتم كثيرًا، بالحضور الإلكتروني أو العنكبوتي لدراساته ومقالاته؛ بالرغم من أنه أحد أبرز من دعا وأصل لتطبيقات تقنيات المعلومات في المكتبات. وربما كان من دأب الرجل أن يدع كل لوظيفته؛ فوظيفة الباحث أن يكون باحثًا، ووظيفة المؤسسات أن يقوم كل منها بدوره ووظيفته. ولذلك فإنه من الطبيعي أن نجد معظم الإشارات في "جوجل" هي أقرب إلى إنتاج الرجل الورقي منها إلى نظيره الإلكتروني. كما أن بعضًا من إنتاج الرجل المنشور إلكترونيًا، بصورة منهجية، هو حبيس مرادف البيانات التي لا يصل إليها "جوجل".

والحقيقة أن لذلك أسبابًا، لعل أولها أن جُل عمر الرجل كان في عصر المطبوعات الورقية لا العنكبوتية، ثم في عصر الوصول المقيد لا الوصول الحر. وحتى بعد نشوء العنكبوتية، ثم بعد بزوغ الوصول الحر، لم تكن المؤسسات الأكاديمية ولا المهنية العربية على مستوى المسؤولية وعلى مستوى العصر وتطوراته وتشريعاته التي أدت -من بين ما أدت- إلى إنشاء المستودعات المؤسسية والتخصصية ومن ثم تألق العلماء والباحثين وتراثهم الفكري في البيئة العنكبوتية. وإذا كان ذلك قد فات في حياة الرجل، فإنه لم يفت بعد بالطبع بعد رحيله.

ماذا تبقى من حشمت قاسم؟

ربما كان الاتصال العلمي أحد أبرز القطاعات التي واصل الرجل اهتمامه بها بنفس قدر البدايات؛ فقد ترجم العاملين الأساسيين في هذا القطاع لجاك ميدوز^(٧) ووليام جارفني^(٨). وتواصل اهتمامه بذلك على فترات مختلفة، حتى صدور كتابه التجميعي "الاتصال العلمي في البيئة الإلكترونية"^(٩) والذي كان توليفة موفقة من مقالاته المنشورة نجحت في التعريف بأبرز قضايا الاتصال العلمي حتى منتصف العقد الأول القرن العشرين. وكان آخر أبرز ما قام به في هذا القطاع، كتابته لمقدمة ضافية لـ "رسالة العلم الاجتماعية"^(١٠) أحد الكتب العلامات في تاريخ هذا الموضوع.

وقام حشمت قاسم بالتأطير والتنظير لعلم المعلومات، والتعريف بجذوره ورواده، وعلاقاته ومصطلحاته؛ ليس في تاريخه الغربي فحسب، وإنما أيضاً من المنظور العربي^(١١).

هناك أكثر دلالة من ذلك من أنه - رحمه الله - بدأ حياته العلمية بعدة كتب منها كتاب رئيس في هذا الموضوع^(١٤)، فيما انتقل إلى رحمة ربه وهناك كتابان له قيد الطبع في نفس الموضوع^(١٥) (١٦).

إن النظرة المنصفة لما تبقى للرجل من تراث وآثار^(١٧)، تفيد بأن الرجل قد جاهد ورابط على جبهات كثيرة ومتعددة ربما بطول مجال "علم المعلومات" وتطبيقاته في المكتبات؛ بحثًا وتأييماً وترجمةً وتحريراً وتدريباً وإشرافاً على الأطروحات وتقديمًا للاستشارات وإدارة لبعض المؤسسات... إلخ. وقد قام، في كثير من ذلك، على التعريف والتأصيل لكثير من القضايا والمصطلحات، وعادة ما كان - رحمه الله - يتصدى للمصطلحات الحديثة والشائكة والمنتشرة واضعاً إياها تحت مجهر الفحص والتمحيص.

وباختصار، كان الرجل في أتون المعركة العلمية في التخصص وإن صح التعبير، وفي قلب جبهة البحث في المجال، وعاش حياته طولاً وعرضاً منغمساً ومشتبكاً - كمتخصص - مع الأحداث والقضايا التي دارت في وطنه وأمته. كان الرجل جندياً مخلصاً صبوراً مرابطاً في إبلاغ رسالته إلى الناس، وفي الدفاع عما يراه حقاً من آراء وأفكار.

وفي هذا الصدد، هناك جانب أرى أنه ينبغي تسليط الضوء عليه، وهو إيمان الرجل بالنظام العربي للمعلومات، ودعوته إليه. نلمس ذلك في بحثه المقدم لأحد المؤتمرات^(١٨)، وفي دعمه للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات منذ نشأته، وفي تبنيه لبعض المشروعات العلمية^(١٩)، ودعمه لبعضها الآخر^(٢٠). وهذا في الحقيقة غيض من فيض، وإلا فإن الأمثلة كثيرة.

ومن الطبيعي أن تكون شخصية كحشمت قاسم، تعرف أكثر مما تقول، وأن ما تقوله لا يقل أهمية عما تكتبه. وللأسف فإننا نفقد جُل ما ألقاه الرجل من أحاديث لمحطات الإذاعة والتلفاز العربية (وهو كثير كما حدثني أثناء إعداد الكتاب التكريمي عنه - رحمه الله). ولا تحتفظ لنا "اليوتيوب" مثلًا إلا بتسجيلات يسيرة رفعها مريدوه ومحبهه على تلك الشبكة^(٢١).

كما قام - رحمه الله - بإلقاء عديد من المحاضرات العامة، خارج السياق الأكاديمي. وجُل هذه المحاضرات، ليس لدينا منها أي نصوص مكتوبة أو مسموعة أو مرئية للأسف.

ويتبقى من آثار الرجل التي ينبغي متابعتها من قبل جميع المهتمين، ثلاثة كتب قيد النشر منذ زمن بكل من المجلس الأعلى للثقافة^(٢٢)، والمجلس القومي للترجمة بمصر^(٢٣) (١٥) (١٦).

كما يتبقى من آثاره التي ينبغي الاهتمام بها، بحوثه التي ألقاها في المؤتمرات ومقالاته المتناثرة في الدوريات

ودائمًا ما كان الرجل يرى بذورًا لعلم المعلومات تحتاج إلى من يستكشفها في بطون تراثنا العربي.

فتح حشمت قاسم الباب واسعًا أمام الباحثين العرب لدراسة خصائص الإنتاج الفكري العربي "دراسة منهجية" في ضوء البيليومتريًا (ذلك المصطلح الذي اشتقه بذكاء وتوفيق بالغين) أو القياسات الوراقية. وكتب الرجل في هذا القطاع مقاليتين نظريتين بذرتين seminal articles^(٩)، فضلًا عن بعض الدراسات التطبيقية الرائدة في مجالها. ومن وجهة نظري، لا يأخذ الرجل عن توقعه عن المضي قدمًا في تطوير دراساته في هذا القطاع، وصولاً للقياسات العنكبوتية والقياسات البديلة أو الألتمتريقا^(١٠)؛ فقد تنازعت بعد ذلك الاهتمامات التخصصية في موضوعات أخرى كثيرة في المجال، فضلًا عن مواصلة الإشراف على طلاب الدراسات العليا في هذا القطاع والذي يعد بعضها نماذجًا يحتذى بها بلا مبالغة. وإن كان للرجل - عفا الله عنه - موقف من الألتمتريقا في أول مؤتمر عربي في هذا القطاع، دون مبرر منهجي؛ وعلى العكس مما هو سائد عالميًا، وبقطع النظر مما يشوب وسائط التواصل الاجتماعي من محاذير كقنوات للاتصال العلمي بالمقارنة بقنواته الكلاسيكية.



الراحل قام بالتأطير والتنظير لعلم المعلومات، والتعريف بجذوره ورواده، وعلاقاته ومصطلحاته؛ ليس في تاريخه الغربي فحسب، وإنما أيضاً من المنظور العربي



قدم حشمت قاسم المقالة البذرية الرئيسية في قطاع "سلوكيات التماس المعلومات"^(١١)، وقدم في عام واحد كتابًا مترجمًا مهمًا^(١٢)، ومقالة مترجمة مهمة عن مناهج البحث فيه^(١٣)، فضلًا عن بعض الفصول في كتبه الأخرى. ولا يمكننا تفسير عدم مواصلة الرجل الإسهام في هذا القطاع الذي يعد أحد أبرز قطاعات علم المعلومات، بنفس الدرجة، سوى باهتمامه أيضًا بالإشراف على طلاب الدراسات العليا الذين رأى فيهم إمكانية مواصلة الدرس في هذا القطاع على المستوى التطبيقي.

وكان حشمت قاسم، كما أسلفنا، أحد أبرز من دعا إلى تطبيقات تقنيات المعلومات في مرافق المعلومات، وليس

التخصصية والعامية، والتي لم تُجمع ولم تُنشر مرة أخرى في "كتاب تجميعي واحد" كما هو الحال في كتبه التجميعية الأخرى. وأتصور أن عملاً كهذا يمكن أن يشغل عدة مجلدات لا مجلد واحد.

ولا يمكننا أن نترك الحديث عن الآثار الفكرية للرجل، دون الإشارة إلى ذلك الكنز الذي لا يقدر بثمن؛ وهو تقارير تحكيم الأعمال العلمية التي كتبها استجابة لطلب الجامعات والمؤسسات العلمية، أو بحكم عضويته للجان الترقيات العلمية. وهذه التقارير بحكم طبيعتها، من الإنتاج الفكري المحظور، وفقاً للنظام الصارم للاتصال العلمي الذي يحكم هذه الممارسة منذ زمن طويل في العالم أجمع.

لقد كان من آخر التعبيرات التي كان يقولها الرجل، رحمه الله: "اللي ألف مامتش" (لم يمت من عني بالتأليف والنشر لأعماله). وإذا أخذنا بقوله هذا، فإن حشمت قاسم بأعماله وإسهاماته لم يمت فعلاً، وإن كان قد رحل عنا بجسده، فإنه لا يزال باقياً بيننا بأعماله. وإذا كان الرجل قد اهتم في السنوات الأخيرة بالتأريخ لعلم المعلومات من خلال الترجمة لبعض أعلامه من خلال سلسلة مقالات حملت عنوان "رواد في علم المعلومات"؛ فإنه لا شك جدير بأن يقف بأعماله شامخاً بين هؤلاء كرائد في العالم العربي لعلم المعلومات.

(* قسم علوم المعلومات - جامعة بني سويف).

فتح حشمت قاسم الباب واسعاً أمام الباحثين العرب لدراسة خصائص الإنتاج الفكري العربي "دراسة منهجية" في ضوء الببليومترياً أو القياسات الوراقية

المراجع والهوامش

(١) حشمت قاسم، لمحات من حياة فلاح صريح. في: رحلة عربية في المكتبات وعلم المعلومات: دراسات مهداة إلى الأستاذ الدكتور حشمت قاسم بمناسبة بلوغه سن السبعين/ تحرير عبدالرحمن فراج. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣. ص ٣٠-٣٥.

(٢) أشرنا إلى بعض هذه المؤشرات في عمل سابق. أنظر: عبدالرحمن فراج. الأستاذ الدكتور حشمت قاسم ودوره في تطور علم المعلومات في العالم العربي. في: رحلة عربية في المكتبات وعلم المعلومات: دراسات مهداة إلى الأستاذ الدكتور حشمت قاسم بمناسبة بلوغه سن السبعين/ تحرير عبدالرحمن فراج. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣. ص ١٣-١٧٤.

(٣) ميدوز، جاك. آفاق الاتصال ومناخه في العلوم والتكنولوجيا/ ترجمة حشمت قاسم. القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٩. ٣٥٦ص.

(٤) جارفني، وليم. الاتصال أساس النشاط العلمي/ ترجمة حشمت قاسم. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٣. ٤٧٢ص.

(٥) حشمت قاسم. الاتصال العلمي في البيئة الإلكترونية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥. ٥٣٥ص.

(٦) برنال، د. رسالة العلم الاجتماعية/ ترجمة إبراهيم حلمي عبدالرحمن؛ مراجعة محمود علي فضلي؛ تقديم حشمت قاسم. القاهرة: المجلس القومي للترجمة، ٢٠١٥.

(٧) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: حشمت قاسم. نظرة عامة في مصطلحات علم المعلومات. أحوال المعرفة. س١، ١٤٥ (سبتمبر ٢٠٠٩). ص ص ٢٩-٢٤.

(٨) حشمت قاسم. كشافات الاستشهاد المرجعي وإمكاناتها الاسترجاعية. المجلة العربية للمعلومات. مج٣، ٣ (يونيو ١٩٨٠). ص ص ١-٢٤.

(٩) حشمت قاسم. تحليل الاستشهادات المرجعية وتطور القياسات الوراقية. المجلة العربية للمعلومات. مج٣، ٤ (ديسمبر ١٩٨٠). ص ص ١١-٤٧.

(١٠) كانت استجابةً كريمة من الرجل للمشاركة في أول مؤتمر عربي في هذا القطاع عام ٢٠١٦م، بدعوة من كاتب هذه السطور إبان اختياره مقررًا لهذا المؤتمر. أنظر: حشمت قاسم. تحليل الاستشهادات المرجعية وتطور القياسات الوراقية. في: المؤتمر الدولي لقياسات المعلومات ومعامل التأثير العربي، الإسكندرية، ٦-٩ أغسطس ٢٠١٦. الإسكندرية: الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري، ودار العلوم الطبيعية للنشر الدولي، ٢٠١٦. ١٢ص. عرض تقديمي.

(١١) حشمت قاسم. دراسات الإفادة من المعلومات؛ طبيعتها ومناهجها. مكتبة الإدارة. مج ١، ٣ (يونيو ١٩٨٤). ص ص ٥٣-٨٨.

(١٢) نيكولاس، ديفد. التحقق من الاحتياجات المعلوماتية؛ الأدوات والأساليب/ ترجمة حشمت قاسم. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للوسائط الثقافية والمكتبات، ٢٠٠٦. ١٤١ص.

(١٣) وانج، بيلنج. مناهج البحث وطرقه في دراسة سلوك المستفيدين من المعلومات/ ترجمة حشمت قاسم. دراسات عربية في المكتبات وعلم المعلومات. مج ١، ١ (يناير ٢٠٠٦). ص ص ٥-١٩١.

(١٤) كنت، أن. ثورة المعلومات؛ استخدام الحاسبات الإلكترونية في اختزان المعلومات واسترجاعها/ ترجمة حشمت قاسم، وشوقي سالم؛ مراجعة أحمد بدر. الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٣. ٤٨٤ص.

(١٥) إيان جيه، لويد. تشريعات تقنيات المعلومات/ ترجمة حشمت قاسم. القاهرة، المركز القومي للترجمة. (قيد النشر).

(١٦) بشو، هايتن. التعبير عن المعلومات واسترجاعها في العصر الرقمي/ ترجمة حشمت قاسم. القاهرة، المركز القومي للترجمة. (قيد النشر).

(١٧) لم يكن ذلك إحصاءً شاملاً لأعمال الرجل بطبيعة الحال، فذلك مما تضييق عنه كما هو معلوم مثل هذه المقالة.

(١٨) حشمت قاسم. عود على النظام الوطني للمعلومات في إطار نظام عربي موحد. في: الأعمال الكاملة لمؤتمر العلوم الإنسانية وتحديات المجتمع المصري، المنعقد في الفترة من ٦-٧ أبريل ٢٠٠٤. بني سويف: جامعة القاهرة - فرع بني سويف، كلية الآداب، ٢٠٠٤. ص ص ٤٨٣-٤٩٢.

(١٩) حشمت قاسم. مكنز الطفولة العربي؛ بناؤه ومشكلاته. في: اجتماع خبراء التوثيق والمعلومات في الوطن العربي. القاهرة: المجلس العربي للطفولة والتنمية، ١٩٩٣. ٣ص.

(٢٠) حشمت قاسم. مرجحاً بالفهرس العربي الموحد. دراسات عربية في المكتبات وعلم المعلومات. مج ١، ١ (يناير ٢٠٠٨). ص ص ٧-٩.

(٢١) وهذه دعوة لجميع من يحتفظ بتسجيلات مسموعة أو مرئية عن الرجل - رحمه الله - لرفعها على "يوتيوب" وما شابهها من منصات.

(٢٢) حشمت قاسم. مراجعات الكتب في المكتبات وعلم المعلومات. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، قيد النشر.